

«مهاجر البوذية في آسيا»

للدكتور س . دت

كانت البوذية أكبر عوامل التوحيد في مرافق الحياة لآسيا كلها منذ عصور بالغة في القدم . حيث ساعدت على تقريب الشعوب المتفاوتة ، مع اختلاف الاجناس والتجارب التاريخية والثقافية المتباينة ووجهات النظر المعينة نحو الحياة ، في مضمار مشترك من الأمور العقلية والروحية وكما أنها صارت بمثابة واسطة لتوثيق عرى التعارف والتبادل الثقافى والفكرى بين هذه الشعوب . وان لم تعد البوذية اليوم تقوم بنفس الدور الذى كانت تقوم به في الماضى فلا بد أن نلقت أنظارنا الى مقاله بوذى يابانى عظيم ونستفيد منه حيث قال « اذا كان الشرق يلتقى على « نقطة التقاء » خاصة ويمتاز بميزة يختلف بها عن الغرب فتراها واضحة جلية في الفكر الذى تنطوى عليه البوذية لما أن الفكر البوذى وحده العامل الذى يوحد بين الهند والصين واليابان وغيرها من البلدان التى تمثل الشرق . ولكل شعب أساليبه الخاصة في تطبيق هذا الفكر بمقتضى حاجات البيئة ولكن حينما يجابه الشرق الغرب كوحدة خاصة فتكون البوذية هى همزة الوصل بين البلدان الآسيوية كلها .

وربما لا يمكن لواحد أن يوافق على جميع ما ورد في هذا البيان ولكنه بمثابة دلالة واضحة على الأهمية الأساسية في التاريخ الآسيوى لانتشار البوذية فى شتى بلدان القارة . ولم تصل البوذية الى هذه البلدان فى شكل عقيدة محضة بل كثقافة خاصة مع أفكارها العلمية والقيم الانسانية

(١) رسائل «سزكى» عن البوذية (السلسلة الثالثة)

البوذية اليابانية . ص ٣٤٨ . طبع . . . ريدر - لندن ١٩٥٣ .

وتصورها الخاص لمعنى الحياة وأهدافها. فهي نظرية ذات مجال واسع وأهداف نبيلة عديدة وإنما أريد الآن القيام يبحث تمهيدى عن خط البداية الذى بدأ منه التاريخ البوذى سيره قدما .

وكانت مهاجر البوذية فى آسيا قد واجهت عدة حركات وانفعالاتها فى مختلف القرون ومن مختلف النقاط فى تطوراتها سواء أكانت فى الهند أو غيرها . وكانت النقطة الأولى للداية عبور البوذية من الهند الى السيلان فى العهد الأولى للتاريخ البوذى الذى يشمل عصر الإمبراطور « أشوكا » وتسجل الوثائق التاريخية القديمة التى دونت تاريخ الجزيرة قيام حركة تبشيرية كبرى فى نفس العهد بأيدى رجال « مغالى بتاتيسا » . وكان معظم مبشرى « تيسا » منحدرين من شتى نواحي شمال الهند ونواحيها ولكن التاريخ يتحدث أيضا عن جماعتين من المبشرين الأجانب فاحدهما من بلاد «روناس» والآخرى من «سورنا بهومى» وهى عبارة عن بلد كان يطالب به كل من اندونيسيا وبورما وتهايلاند .

وبينما تصف تلك الوثائق التاريخية تفاصيل النجاح الذى أحرزته البعثات الدينية الهندية لاندون كثيرا عن المبشرين الأجانب . وهذه هى الدعوة الدينية المنظمة المعروفة فى تاريخ البوذية ويبدو بأنها كانت تهدف أولا وقبل كل شئ الى نشر هذا الدين فى الهند نفسها لما كانت البوذية فى زمن أشوكا دينا اقليميا منحصرافى البقاع الشرقية لشمالى الهند وقد وردت الاشارة اليها فى اسفار « بالى » باسم « براتيسا » وبعد زمن أشوكا لم تعد البوذية دينا اقليميا بل انتشرت فى شتى أنحاء البلاد فى القارة وتوطدت

أركانها في السيلان . وعلى مرور الأيام قد تحولت أهمية البوذية في الهند من كونها مجموعة من المعتقدات الى أنها ذات ميزات ثقافية خاصة . وبفضل انتشارها في أوساط الجمهور الهندي قد ضمت في طياتها كثيرا من عاداتها وفنونها وطقوسها .

وبدأ عامة البوذيين يستخدمون الفن لأغراض دينية فصنعوا تماثيل بوذا في مختلف الأحجام وتصوير الرموز الواردة في الكتب المقدسة وبنوا الأعمدة والصوامع طبقا لتصميمات معمارية خاصة مع النقوش المأخوذة من الأساطير البوذية وشعائر العقيدة البوذية ورموزها . ومن ناحية أخرى نظمت جماعة النساك البوذيين حلقات دروس خاصة ومن القرن الخامس فصاعدا قد توسع نطاقها الى خمسة أنواع من العلوم (المعروفة باسم «الودياس الخمسة») وفي مقدمتها العلوم العقلية والمنطق . وأما الجامعات الرهبانية فقد أجازت التعليم فيها للبوذيين وغيرهم على حد سواء .

ونالت هذه التطورات مجاها باهرا فيما بين القرنين الأول والسابع وفي هذه الفترة انتشرت البوذية في سائر البقاع في آسيا . وإذا أردنا الوقوف على الأشكال الصحيحة التي أخذتها البوذية في هذه البلدان فلا بد علينا أن نعرف من ضوء التاريخ الصحيح لامن الأساطير - النقطة التي منها أخذ كل بلد بوذيته . فقد تطورت الثقافة - على اختلاف أشكالها وطبائعها - أثناء هذه الفترة أي من القرن الأول إلى القرن السابع للميلاد اذ انتشرت الثقافات القبلية والهمجية في بعض البقاع بينما تمكنت الثقافة الصينية القديمة الراقية في جهات أخرى . وعلى هذا في مكتتنا أن نقول بأن البوذية كانت حينذاك بمثابة «همزة الاتصال» الثقافي على حد تعبير علماء علم البشر . ولكن

الثقافة البوذية لم تصل إلى تلك البلدان في أول الأمر مع قوامها الكامل وميزاتها من جميع الوجوه. فأما الذي تلقته في البداية فهو بعض التماثيل البوذية ورموز ونقوش الشعائر البوذية وقطع من النصوص الدينية والمخطوطات البوذية وكل هذا وذلك بطريق التجار والنسك المتجولين. وهذه الأشياء الشعارية المحضة في المراحل الأولى لم تساعد على تطور البوذية وتوطد أركانها في تلك البلدان خصوصا لكونها في دور التطوير الأدبي.

وكانت لهذه الطريقة الجزئية والاتفاقية لوصول البوذية إلى تلك البلدان نتائجها الخاصة، أولا - أن البوذيين في هذه القارة لم يدركوا كما حققه المميزات الفكرية والمعنوية لمختلف المدارس البوذية في الهند حتى التفاوت الرئيسي بين مدرستي «هينايانا» و«مهايانا» وثانيا - أن البوذية قد عرفت هناك بدون أي سند إلى قلبها في الفكر الهندي وفلسفتها التي لم يلموا منها بشئ. وثالثا - قد بذلت المحاولات لربط البوذية بتقاليد وطقوس ثقافة البلدان التي وصلت إليها.

وهذه المعالجة التي لاقتها البوذية في نطاق حر قد كسفت الميزة الفريدة لتطوراتها في كل من تلك البلدان. ودعنا الآن نستشهد ببعض الأمثلة على هذا - «في اندونيسيا تأثرت البوذية بالمعتقدات المحلية الشائعة المعروفة «ديورا راجا» والتي ما كانت تعرفها الهند وأما الحضارة «الكهمرية» فقد أخذت جنورها في منحوتاتها وتماثيلها ونقوشها وفي التبت تكيفت البوذية التأثيرية أو المعروفة «بمنترينا» في الهند بطقوس الدين السائد هناك قبل وصول البوذية. وأما في الصين واليابان قد «أبخت» البوذية وتولدت منها عدة مدارس حيث لا توجد لها نظيراتها في المدارس البوذية الهندية.

ومن التطورات الهامة في تاريخ انتشار البوذية انقطاع سلسلة الدعوات التبشيرية بعد عهد الامبراطور آشوكا. وأن كل ناسك بوذي لا بد أن يكون مبشرا بطبيعة الدعوة البوذية ولكن لم تنظم جماعات تبشيرية خاصة بعد آشوكا في الهند. وكانت البوذية تنتشر في شتى بقاع العالم بأيدى النساك البوذيين الذين كانوا يتجولون في أقصى البلاد وأدناها وهكذا عرفت البوذية في سائر أنحاء القارة بطريق هؤلاء المتجولين والتجار المتعهدين بتصدير الرموز المادية للاديان من مختلف البلدان. وفي مكنة الواحد أن يشبه التقدم الابتدائي للبوذية بالشرر التي تطير الى شتى الجهات من «السندان» الفكري الذي تدق عليه البوذية طوال القرون العديدة لتتكيف بأشكال مختلفة في الهند فكانت الشررتساقط أحيانا خامدة وأخرى شعلة متوقدة. فكانت المشاعر المتوهجة تتبادل من يد الى أخرى مثل تناوب المشاعر في المباريات الاولمبية. فسلمت من السيلان إلى بورما وتهايلاند ومن تهايلاند إلى كمبوديا. وأرسلت الهند لأول مرة الدعوة البوذية إلى السيلان وفي الفترات المتراوحة بين القرن الأول والقرن السابع أرسلت نورها وعرفانها إلى اتجاهين فوصل الطرف الذي مر بالبحر إلى اندونيسيا والملايو وأما الطرف الذي مر عبر صحارى آسيا الوسطى فبلغ إلى الصين الشمالية.

وقد ترعرعت في أرض القارة الآسيوية الواسعة ثلاث امبراطوريات عظيمة ثم توارت في تربتها خلال القرنين الأول والسابع وهي الامبراطورية الصينية الناهضة ماديا وثقافيا والامبراطورية الكهمرية وكذلك الامبراطورية

السيلاندية التي عاشت لفترة وجيزة . وقام كثير من هذه الأسر المالكه بمناصرة الديانة البوذية والدعوة إليها مع أنهم لم يعتنقوا البوذية رسميا . وكان الاثر السريع المترتب على اتصال الثقافة البوذية مع الثقافات الاسيوية السائدة حينذاك تطوير هذه الثقافات التقليدية إلى مرحلة عليية مهيبة . ولعدم الوثائق التاريخية المدونة أو قلتها يصعب علينا الوقوف على مراحل التطورات في كل مكان . ولكن الأمثلة الحية على ذلك الآن التبت والدولتان في آسيا الوسطى أي « كهوتان ، و « كوتشا » .

وأما الشواهد التي يجدها من التبت قناريخية ومباشرة فان الاصلاحات التي أدخلت في اللغة التبتية لكي تمشى مع قواعد نحوية وكذلك اختراع حروف هجائية تكتب بها ويعود باعها الأول إلى ضرورة نشر الكتب البوذية في أوساط الشعب التبتى بطريقة واضحة . ويقول المدونون لتاريخ التبت بأن ملك التبت قد بعث العالم « تونغى سمبهرتا ، لتعلم البوذية في الهند فوصل إلى مقر « فلدا مهاويرن ، الى أواخر القرن السابع وقت أن كان العالم الصينى الشهير « هسوان تسانغ ، أيضا يقيم هناك لغرض دراسة البوذية . وأما الشواهد من « كهوتان ، و « كوتشان ، فتؤخذ من المخطوطات المتنوعة التي جمعها علماء الآثار التاريخية من أماكن هاتين الامبراطوريتين الساحليتين القديمتين ترعرعتا في تضاريس الرمال المتماوجة . وكانت « الكوتانية ، و « الكوتشانية ، لغتين مختلفتين وأن النماذج الأولى الخطية لهاتين اللغتين لتشبه تماما مع خط « كيتا ، الهندى . ويوجد لخط « الكوتهانى ، شكلان الأول والنهائى وان المخطوطات الأولى للميتة بالآداب البوذية وفي مقدمتها « هورنل ، أحد الكتب الموثوقة في الأدب « الكوتانية ، فجاء فيه اذا عرفنا أن البوذية قد

انتقلت من الهند الشمالية الغربية إلى كهوتان في بداية العصر المسيحي فتيبين لنا توا بأن النصوص البوذية الرئيسية لا بد أن ترجمت إلى لغة كهوتان ، فور وصولها إليها .

وبعد وصول البوذية إلى الصين - من آسيا الوسطى - وجدت نفسها وسط ثقافة أجنبية متقدمة عن أخواتها وناضجة بمرور الزمن ومزدهرة بمدرستين فكريتين كبيرتين أولاهما « الكونفوشوسية » و « التاووية » . وأن التاريخ الصيني بنفسه بمثابة توضيح طويل لتحويل الحوادث التاريخية مجرى التيار الثقافي . وبين عالم كبير من خبراء البحوث الثقافية هذا الأمر بقوله « إن التيار الثقافي يحصل عموماً من النتائج التي تترتب على النمط الخاص الذي يتبع في تنظيم ثقافة معينة أي الأهداف والغايات التي يستهدفها الزعماء المصلحون للمجتمع طبقاً للقيم التي تميزها ثقافتهم . وأن الحوادث التاريخية لعبارة عن التطورات التي تحدث في حياة قوم بحيث لا يتوقع حدوثها بمقتضى ثقافتهم التقليدية وإنما تولد هذه التطورات اتجاهات جديدة تكون بمثابة نقطة تحول في مجرى تاريخهم .^٢ »

وإذالم تندفق البوذية - في شكل أسفار بوذية - من آسيا الوسطى إلى الصين لكان تيار الثقافة الصينية يواصل مجراه بدون تغير يذكر . وعند ما ترجمت عدة أسفار بوذية إلى - الصينية منذ القرن الأول وعندما انتقلت البوذية من درجة كونها مجرد دين بلاطى إلى درجة دين شعبي حاول المترجمون

(١) بقايا المخطوطات عن الأدب البوذي التي عثر عليها في

التركستان الشرقية المجلد الأول ، ص ١٢ طبع في مطبعة «كلايرندن» ، ١٦ (١٩) .

(٢) علم الآداب ، ليم : جى . هرستكوتس ، ص . ٤٥٢ ، طبع ألفرد

«كنوبت» ، نيوروك ١٩٥٥ م .

الصينيون و متمسكوا الديانة البوذية من أهالي الصين لجعلها متمشية مع التيار الثقافي لهم . وقد جاء استخدام كلمة « تاو » في التراجم مساويا لكلمة « دهرما » أو « بودهي » وكذلك تساوى لفظة « كونفيوشس » مع كلمة « شيلا » أى الورع وهلم جرا . وأما المفسرون للديانات شفويا اخترعوا طريقة خاصة فى مواعظهم وخطبهم وقد عرفت تلك الطريقة فيما بعد باسم « كو - وى » أى المعادلة بين النظريات والتصورات . وطبقا لهذه عرضت النظريات « التاوروسية » و « الكونفوشيوسية » مثلا فى تقديم « بنجشيللا » أى الفضائل الحس المعيارية « الواردة فى مذهب « كونفيوشسوس » . وما هو جدير بالاستعادة إلى الأدهان أن المعلمين الأول للبوذية من الصينيين أصبحوا فيما بعد عرضة للانتقاد المراد قيل بأنهم أطنبوا خطبهم وضمموا مواعظهم بأسلوب « كو - وى » وأطالوها بدون طائل بمعادلات ومقارنات طويلة . ويقول لنا علماء الأجناس البشرية « إن كل شعب يكون عرضة للاتصال بعناصر ثقافة غير ثقافتهم الخاصة فأما الذى يحدد العناصر التى يأخذونها والتى يرفضونها فهو الثقافة السائدة فيهم من قبل والظروف المحيطة بهم^٢ . وهذا هو الذى حصل بالضبط فى المماوشة التى حدثت بين الثقافة البوذية وسائر الثقافات الآسيوية . فبينما أخذت المظاهر الثقافية

(١) انظر الفصل ١٤ (حول كو-وى) من «رادها كرىشنان» أى

دراسة مقارنة قدمت على شرفه بمناسبة عيد ميلاده الستينى من عمره ، طبع آلن وينوين - لندن . ١٩٥١ وكذلك الفصل ٢ فى رسالة عن البوذية فى التاريخ الصينى طبع جامعة ستانفورد فوردي ١٩٥٩ م . (٢) «علم الآداب» ليم . جى . هرسكوتس ، ص ٤٨٢ .

السفلى - مثل بناء الاعمدة والمعابد والتماثيل البوذية وما إلى ذلك - مكانتها في الظاهر حاولت الثقافات العليا للتغلغل إلى المبادئ الرئيسية والتصورات الحقيقية للدين . وأن البوذية لم تتبع في أى مكان وصلت إليه وسائل العنف أو أضمرت المعادات للثقافات الأخرى بل وأنها قد منحت زمنا كافيا وفرصا واسعة لسائر الثقافات الناهضة في شتى أنحاء آسيا لكي تدرس هذا الدين الجديد وتقدره حق تقدير وتغوص في مبادئه وغاياته .